المركز الجامعي ميلة

مادة: لسانيات النص ونظريّة النظم

السنة الثانية ماستر/ لسانيات عربية السنة الدراسيّة: 2022/ 2023

محاضرة في موضوع:

*مفاهيم لسانيات النص في دلائل الإعجاز

تمهيد: يختلف القرآن الكريم في تماسك لآياته عن النصوص الأدبيّة الّتي قيلَ عنها راقية؛ فنصّ القرآن الكريم معجز، ذلك ما ذهب إليه علماء التفسير، إذ يصعُبُ على الباحث اليوم أن يُحيطَ بجوانب الإعجاز، وإنْ كنّا نملك من أمّات الكتب ما يُعيننا على فهم كلام الله وتدبّر آياته. ولعلّ من الكتب الفريدة الّتي حاولت أن تدقِّقَ في تماسك الكلام كتاب دلائل الإعجاز لـ(عبد القاهر الجرجاني) ونظرية النظم في القرآن الكريم.

نظريّة النظم التي جاء بها (عبد القاهر) يعود الفضل في ذلك لكثير من الجهود التي سبقته؛ فثمّة من اللغويين من مهَّدَ الطريق للجرجاني أن يؤسّس لنظريته، ومن هؤلاء (الجاحظ) ولسنا في هذا الصدد تناول جهود الجاحظ، إنّما الهدف من المحاضرة أن نتطرّق لنظريّة النظم وما استعمله من مصطلحات نحاول مقاربتها بجهود الغربيين في لسانيات النص وآليات تحليل النصوص. ومن التساؤلات التي كان لزاما علينا طرحها في هذا السياق ما يلي:

– إلى أي مدى يمكن لمصطلحات لسانيات النص أن تتّفق مع مصطلحات نظريّة النظم؟

– فيم تكمن أوجه التشابه بين لسانيات النص ونظرية النظم؟ وفيم تختلفان؟

إنّه من الطبيعي للباحث –ها هنا– أن يفهم في البداية معنى نظرية النظم وأهدافها وقوام النظم وأسسه، وكذا ما يلي النظم من مصطلحات لها ما يقابلها في لسانيات النص وآلياتها، كتناول: التعليق والفصاحة ومعاني النحو، والوجوه والفروق والموضع، والفروق في الخبر، والفروق في الحال، ومن لآليات الربط والارتباط، وفروق في وجوه الشرط والجزاء.

1/– مفهوم نظرية النظم: يذكر عبد القاهر الجرجاني في كتابه بأنّ النظم هو مطابقة الكلام لمقتضى الحال؟! أي أنّ النظم تتبُّع معاني النحو فيما بين الكلم على حسب الأغراض التي يُصاغ لها الكلام، فمراعاة السياق أساس في نظرية النظم، والسياق ذو علاقة بالمتلقي الّذي لا يتسنى له الفهم إلاّ إذا كان ارتباط الكلام منسجِماً معه.

و" أمّا نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك، لأنّك تقتفي في نظمها آثار المعاني وترتيبها على حساب ترتيب المعاني في النفس، فهو إذن نظمٌ يُعتبر فيه حالُ المنظوم بعضَه مع بعض، وليس هو النظم الّذي معناه ضمُّ الشيء إلى الشيء كيفما جاء واتّفق وكذلك كان عندهم نظيراً للنسج والتأليف، والصياغة والبناء، والوشي والتحبير، وما أشبَهَ ذلك، مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعضٍ، حتى تكون لوضع كلّ حيث وضعُ علّةٍ تقتضي كونَه هناك وحتّى لو وُضِعَ في مكان غيره لم يصلح"[1]، يظهر من خلال هذا القول أنّ تماسك النص وتناسقه لا يكون إلاّ بتلاحم ستّة عناصر جاءت في نصّه مثنى مثنى، نحو: النسج والتأليف/الصياغة والبناء/ الوشي والتحبير.

[1] – عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز. السلسلة الأدبيّة تحت إشراف محمد بلقايد: 1991، موفم للنشر، ص: 65.

وههنا يتراءى للطالب أنّ تأليف الكلام عند الغربيين هو ذاته بلاغة الخطاب، والّذي يتشكّل من خلال تحقيق السبك la cohésion من نظم الكلم وتراصيه في السياق؛ " فليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في النطق بل تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الّذي اقتضاه العقل"[2]؛ والمقصود بـ (اقتضاه العقل) تلك المعاني النفسيّة في ترتيب الألفاظ وتركيبها، وترتيب المعاني النفسيّة تكون من خلال القالب الّذي نُسِجَت به تأليفا وصياغة.

والجدير بالإشارة ونحن نتناول النصّ من حيث هو نسيج لغويّ محكم البناء بين النفسيّة والتراكيب المتغيّرة في كلّ متماسك؛ أي أنّ البلاغة تراعي العلاقات البينية النحوية بين الكلمات، وتلك هي نظريّة النظم.

ولتوضيح هذه الفكرة وجلائها حريّ منا أنْ نضع بين أيدي الطلبة هذه النماذج من الأمثلة:

الشكل 1:

- **انطلق محمد**
- **محمد منطلق**
- **ينطلق محمد** = **تنويعات تؤدّي إلى علاقات نحويّة متغايرة**
- **محمد لمنطلق**
- **إنّ محمدا منطلق**

ما يمكن استحضارُه حول ما ذكِرَ آنفاً هي علاقة جهود الهولندي (فانديك) في نظريته "النسيج المتشابك للنص" بنظرية النظم عند الجرجاني، إلاّ أنّ جهود

2 – يُنظَرُ نفس المرجع، ص: 54.

(فانديك) أقصت القواعد الكلاسيكيّة واستبدلت آليات تحليل النصوص من حذف وإضافة واستبدال وتكرار ليتخلّص بذلك من نحو الجملة إلى نحو النص.

وما يثير انتباه القارئ لكتاب دلائل الإعجاز أن يلمس في عباراته تناغما بين الكلمات في التركيب ترتيبا وتأليفا، ولا سيما ما جاء منها ثنائيات[1] مرتّبة تدلّ على مستويات الخطاب؛ " على أنّ ههنا نظما وترتيبا وتأليفا وتركيبا وصياغة وتصويرا ونسجا وتحبيرا، فهذه وأنّ سبيل هذه المعاني في الكلام التي هي مجاز فيه سبيلها في الأشياء التي هي حقيقة فيه"[2]، جعل التناغم والنبر بين الثنائيات المذكورة من نص الجرجاني يُحدِثُ أثرا في تصوّر النص من أرقة صور البلاغة الّتي لا تبتعد كثيرا عمّا هو في الخطاب الأدبي والبلاغة الغربية وما تتّسم به من نفعيّة.

الشكل 2:

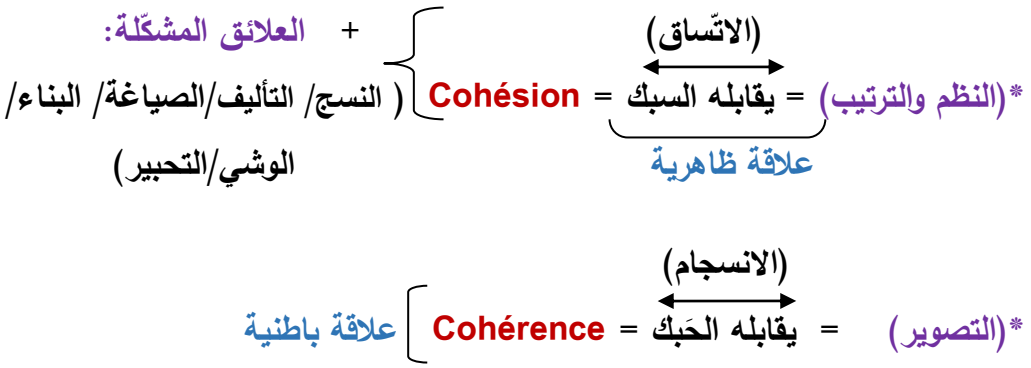

1 – يُنظَر: نصر أبو زيد، مفهوم النظم عند عبد القاهر الجرجاني. قراءة في ضوء الأسلوبية. العدد الأول، المجلد الخامس، القاهرة: 1984. ويُنظَر: سميّة إبرير، مفاهيم لسانيات النص في دلائل الإعجاز.

2 – دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص: 46.

ولعلّ ارتضاء الجرجاني تشبيهَ النظمِ بالصناعات الثمانية (08) كان سببه إيلاء الأهميّة للمتلقي، حيث الكلام موجّه لكافّة الناس الّذين تتنوَّع ثقافتهم ومستواهم، بالتالي فإنّ التدرّج للفهم أضحى ضروريا لرفع اللبس والغموض عن الكلام.

إنّ ما جاء به الفكر اللساني المعاصر ليس ببعيد عن نظرية النظم كما رأينا في السابق، فلكل منهما غاية واحدة وهي دراسة النصّ من حيث ربط الكلمات والألفاظ والجمل تحقيقا لتماسك النص وتناسقه. والنظم في سياقه اللغويّ La cohésion يظل مسعى لابد من تحقيقه في النص، وهو بدوره انطلق من المعنى مرورا بالشكل، ليولي بذلك المعنى العناية القصوى، في حين تركز فيه لسانيات النص على الشكل والبناء للوصول إلى المعنى، إذْ عمِلَ (هاليداي ورقية حسن) على جعل النصّ جملا مترابطة تشكّل وحدة النص المتكاملة.